الفصل الأول

الفيروس

كانت سفينة الفضاء «أحمس» تتقدم ببطء داخل الظلام الكثيف، كأنها تبحث عن شيء لا تريد أن تجده.

على الشاشة الرئيسية، بدا الكوكب الغامض كقطعة رخام داكنة معلّقة في الفراغ، تدور حول نفسها بلا صوت. لم يكن له اسم في الخرائط الرسمية بعد. مجرد إحداثيات، وتقارير قديمة مشوشة، وإشارات حرارية ضعيفة التقطتها مجسات بعيدة قبل سنوات. الآن أصبح قريبًا بما يكفي ليروا تفاصيل سطحه: غيوم رمادية كثيفة، ومناطق خضراء واسعة، وسلسلة جبال تمتد كعمود فقري مكسور.

الكابتن عادل شاكر وقف أمام الشاشة، يداه خلف ظهره، وعيناه لا تفارقان الصورة. كان في السابعة والأربعين، رشيقًا رغم السنوات التي قضاها في الفضاء، وشعره الأسود قد بدأ يظهر فيه خيوط رمادية عند الصدغين. لم يكن من النوع الذي يتحدث كثيرًا، لكن صمته كان يملأ غرفة القيادة أكثر من أي كلام.

التفت قليلًا وقال بصوت هادئ:

«راشد... حالة الكمبيوتر الرئيسي؟»

المهندس راشد، الشاب النحيل ذو النظارة السميكة، كان منحنيًا فوق لوحة التحكم منذ أكثر من ساعة. رفع رأسه، ووجهه شاحب تحت الضوء الأزرق.

«هناك شيء غريب يا كابتن. النظام يعمل... لكن الذاكرة طويلة الأمد تتآكل. الملفات القديمة تُمسح واحدًا بعد الآخر».

اقترب عادل خطوتين.

«فيروس؟»

راشد هز رأسه ببطء.

«يبدو كذلك. برنامج ذاتي التكاثر. يتمركز في أعماق الذاكرة، ثم يبدأ في محو كل ما خزّناه خلال السنوات الماضية. البيانات الجيولوجية، التحليلات الطيفية، حتى سجلات الرحلات السابقة... كلها تختفي».

صمت ثقيل ملأ الغرفة.

من الخلف جاءت صوت الدكتورة سهام محسن، عالمة الأعصاب والذاكرة التي انضمت إلى المهمة في اللحظة الأخيرة:

«هل يمكننا عزله؟»

راشد أجاب دون أن ينظر إليها:

«حاولت. لكنه ينتشر أسرع مما أقطع. كأن أحدًا يزرعُه من الخارج في اللحظة نفسها التي نحاول فيها إيقافه».

وليد كامل، ضابط الاتصال الشاب، كان يراقب الشاشات الجانبية بعصبية واضحة. قال بصوت مرتفع أكثر مما ينبغي:

«يعني نحن الآن بلا ذاكرة؟ بلا خرائط قديمة؟ بلا أي معلومات سابقة عن هذا الكوكب؟»

عادل لم يجب فورًا. نظر إلى الكوكب مرة أخرى. الغيوم كانت تتحرك ببطء، وكأنها تخفي شيئًا تحتها.

«لدينا أجهزة الاستشعار الخارجية»، قال أخيرًا. «وهي لا تزال تعمل. وسيكون علينا أن نثق بما تراه أعيننا من الآن فصاعدًا».

سهام اقتربت من الشاشة، وعيناها الضيقتان تحدقان في التفاصيل الخضراء على سطح الكوكب.

«هذا الكوكب يبدو... مألوفًا أكثر مما يجب. الغطاء النباتي، توزيع الجبال، حتى نسبة الأكسجين في الغلاف الجوي حسب آخر قراءة... كلها قريبة جدًا من الأرض».

راشد رفع رأسه فجأة، وصوته مرتجف قليلًا:

«الكابتن... الفيروس وصل إلى ملفات الطوارئ. خلال دقائق لن يبقى لدينا أي سجل تاريخي عن المهمات السابقة في هذا القطاع».

عادل أغمض عينيه لحظة، ثم فتحهما وقال بقرار حاسم:

«إذن سنهبط. جهّزوا المكوك. وأوقفوا أي اتصال غير ضروري مع القاعدة حتى نعرف ما الذي يحدث هنا».

وليد نظر إليه بدهشة:

«نهبط ونحن عميان تقريبًا؟»

عادل التفت إليه، ونظرته كانت باردة وواضحة:

«أحيانًا يكون العمى أفضل من ذاكرة مزيفة».

على الشاشة، كان الكوكب يكبر ببطء، والغيوم الرمادية تبدو الآن أقرب، وكأنها تستعد لتبتلع السفينة كلها.

وفي أعماق الكمبيوتر الرئيسي، كان الفيروس يواصل عمله بصمت، يمحو الماضي كلمة كلمة، كأنه يمهّد الطريق لشيء آخر... شيء ينتظرهم على السطح.

الفصل الثاني

الكوكب الذي يشبه الأرض

هبط المكوك «أحمس-٢» برفق على سطح صلب مستوٍ، كأن يدًا خفية كانت تنتظره منذ زمن طويل.

عندما فتحت البوابة، اندفع الهواء إلى داخل المركبة. كان نقيًا، باردًا قليلًا، ومحمّلًا برائحة تراب مبتل وأوراق خضراء. لا رائحة كبريت، ولا غازات سامة، ولا أي شيء يدل على أن هذا المكان ليس الأرض.

الكابتن عادل شاكر كان أول من خرج. وقف على درجة المكوك لحظة، يتنفس بعمق، وعيناه تمسحان الأفق. أمامه امتد سهل أخضر واسع، تقطعه أنهار رفيعة تلمع تحت ضوء شمس صفراء باهتة. في البعيد، ارتفعت سلسلة جبال زرقاء الرؤوس، تغطيها غابات كثيفة تبدو كأنها لم تُمس منذ آلاف السنين.

«نسبة الأكسجين واحد وعشرون في المئة»، قال المهندس راشد من داخل المركبة، صوته يصل عبر السماعات. «الضغط الجوي طبيعي. لا إشعاعات غير عادية. لا ملوثات».

سهام محسن نزلت بجانبه، تمسك بجهاز تحليل صغير. أخذت عينة من الهواء، ثم من التربة، ونظرت إلى النتائج بوجه متجهم.

«كل شيء... مثالي»، همست.

وليد كامل قفز إلى الأرض بحماس الشباب، ورفع يديه كأنّه يستقبل العالم الجديد.

«يا إلهي... هذا أجمل من أي منتجع على الأرض. انظروا إلى تلك الأشجار!»

كانت الأشجار فعلاً مدهشة. جذوعها مستقيمة، أوراقها خضراء زاهية، وظلالها باردة ونظيفة. لا أثر لحشرات سامة، ولا لأغصان مكسورة، ولا لأوراق ذابلة. كأن أحدًا يعتني بها كل صباح.

عادل سار خطوات قليلة إلى الأمام. شعر ب tip حذائه يغوص قليلًا في التربة الرطبة. رفع رأسه إلى السماء. الغيوم كانت بيضاء ناصعة، تتحرك ببطء شديد، وكأنها مرسومة لا حقيقية.

«راشد»، قال بصوت منخفض، «هل لديك أي قراءة عن نشاط كهربائي أو موجات غير طبيعية؟»

«لا شيء يا كابتن. كل الأجهزة الخارجية تعمل بشكل طبيعي... بعد أن فقدنا الذاكرة الداخلية».

سهام انحنت والتقطت ورقة سقطت عند قدميها. فحصتها بين أصابعها، ثم رفعتها أمام الضوء.

«التركيب الخلوي... مطابق تقريبًا لنباتات الأرض. لكن هناك شيء غريب. لا أجد أي أثر لطفيليات أو بكتيريا طبيعية. كأن هذه النباتات... معقمة».

وليد ضحك من بعيد وهو يركض نحو جدول ماء صغير.

«أنتم تشكون في كل شيء جميل. هذا كوكب رائع. ربما نبني هنا مستوطنة بعد التقرير».

عادل لم يرد. كان ينظر إلى الجبال البعيدة. بدا له أن الظلال هناك أعمق مما ينبغي، وأن شيئًا ما يتحرك بين الأشجار... ثم يتوقف حين ينظر إليه.

شعر فجأة بثقل غريب في صدره. ليس خوفًا، بل إحساسًا بأن هذا الجمال كله... مرتب. مرتب أكثر من اللازم. كأن أحدًا يعرف بالضبط ما يحبه البشر، فصنعه لهم على المقاس.

سهام اقتربت منه وقالت بصوت لا يسمعه الآخرون:

«هل تشعر به أيضًا؟»

أومأ برأسه دون أن ينظر إليها.

«نعم. هذا المكان لا يريد أن يخيفنا. يريد أن نحبّه».

في الخلف، كان وليد يملأ قارورة من ماء الجدول، ويشرب منها بسعادة.

وعلى بعد كيلومترات قليلة، خلف ستار الأشجار الكثيفة، كانت عيون كثيرة تراقبهم في صمت... وتنتظر اللحظة المناسبة لتبدأ العرض.

الفصل الثالث

الصرخات

كان المساء يقترب ببطء، والشمس الصفراء الباهتة تنخفض خلف سلسلة الجبال، حين سمعوها.

في البداية ظنوها صوت رياح بين الأشجار. ثم تكررت. صرخة حادة، مبحوحة، آدمية تمامًا، قادمة من عمق الغابة شرق الموقع.

وليد كامل كان أول من رفع رأسه من جهاز القياس.

«سمعتم ذلك؟»

سهام أوقفت جهاز التحليل في يدها. عادل كان يقف قرب المكوك، يداه خلف ظهره، لكنه استدار فورًا.

الصرخة جاءت مرة ثالثة، أقرب هذه المرة، وممتزجة بأنين طويل كأن صاحبه يُجرّ على الأرض.

«راشد، أبقَ على اتصال دائم»، قال عادل بصوت هادئ لكنه حاسم. «وليد، سهام... معي. أسلحة ليزر خفيفة فقط. لا نطلق النار إلا إذا اضطررنا».

انطلق الثلاثة نحو مصدر الصوت. الغابة كانت أكثر كثافة مما بدت من بعيد. الأشجار العالية تحجب الضوء المتبقي، والتربة تحت أقدامهم ناعمة ورطبة. لا عصافير، لا حشرات، لا شيء يكسر الصمت سوى صوت تنفسهم وصرير أغصان بعيدة.

بعد عشر دقائق من السير السريع، انفرجت الأشجار فجأة على منطقة خالية واسعة.

وهناك رأوه.

كان الكائن هائلًا. يقف على أربع، بجسد عضلي مغطى بفراء داكن خشن، ورأس ضخم ينتهي بقرنين طويلين منحنيين إلى الخلف كسيوف معقوفة. عيناه حمراوان صغيرتان، والفم مفتوح على أنياب صفراء طويلة. بين قدميه الأماميتين كان رجل يرتدي ملابس غريبة، يحاول الزحف بعيدًا وهو ينزف من كتفه.

الوحش زأر زئيرًا جعل الأرض تهتز تحت أقدامهم، ثم خفض رأسه مستعدًا للانقضاض على الرجل الجريح.

«الآن»، همس عادل.

ثلاث شعاعات ليزر انطلقت في اللحظة نفسها. أصابت الأولى كتف الوحش، والثانية صدره، أما شعاع عادل فكان مركزًا ودقيقًا... استقر في منتصف الجبهة بالضبط.

ارتجف الجسد الهائل. أطلق الوحش صيحة أخيرة مروّعة اختلط فيها الألم بالغضب، ثم انهار على جانبه بثقل هائل، رافعًا سحابة من التراب والأوراق. القرنان ارتطما بالأرض بصوت جاف، والحركة توقفت تمامًا.

الصمت عاد أثقل مما كان.

وليد كان يتنفس بصعوبة، مسدسه لا يزال مصوبًا. سهام اقتربت بحذر من الرجل الجريح الذي كان يحاول النهوض. عادل لم يتحرك من مكانه. كان ينظر إلى جثة الوحش، ثم إلى الغابة المحيطة، كأنّه ينتظر أن يخرج شيء آخر.

الرجل الجريح رفع رأسه أخيرًا. كان طويل القامة، ذا لحية كثيفة وشعر طويل يتدلى من تحت عمامة خضراء. ملابسه تبدو كأنها من زمن بعيد: قفطان ممزق، وحزام جلدي عريض، وسيف معقوف لا يزال معلقًا في جانبه.

عندما وقعت عيناه على عادل، اتسعتا بدهشة وفرح غريب. مدّ ذراعيه كمن يجد منقذًا بعد طول انتظار، وصاح بصوت متهدج مبحوح:

«مرحبًا بقائد الجنود... وحفظ الله السلطان!»

عادل لم يرد. بقي صامتًا، ينظر إلى الرجل، ثم إلى الوحش الميت، ثم إلى الأشجار الكثيفة التي بدت الآن وكأنها تُصغي.

في مكان ما داخل الغابة، كانت عيون أخرى تراقب المشهد... وتبتسم.

الفصل الرابع

رجل من القرن الثالث عشر

الرجل لم ينتظر ردًا.

نهض بصعوبة، متكئًا على سيفه المعقوف، ودم كتفه لا يزال يسيل على القفطان الممزق. اقترب من عادل بخطوات مترنحة، وعيناه تلمعان بفرحة غريبة لا تليق برجل كان قبل لحظات تحت أقدام وحش هائل.

«كنتُ أظن أننا هلكنا كلنا»، قال بصوت أجش. «هذا المخلوق اللعين يطاردنا منذ أيام. لقد أنقذتموني... أنقذتم ما تبقى من جند السلطان».

عادل لم يمدد يده. بقي مكانه، مسدس الليزر لا يزال في قبضته، موجّهًا نحو الأرض لكن جاهزًا.

«من أنت؟» سأل بهدوء.

الرجل انحنى قليلًا في تحية عسكرية قديمة، ثم رفع رأسه بفخر:

«أنا الأمير قلاوون، من جند السلطان المظفر قطز. كنا نقاتل التتار في عين جالوت سنة ستين وستمائة... ثم حدث ما لم نفهمه. نورٌ أبيض ابتلع السماء، وصوتٌ كالرعد، ثم وجدنا أنفسنا هنا... على هذا العالم الغريب».

سهام كانت تقف خلف عادل مباشرة. سمعت التاريخ فارتسمت على وجهها علامة استفهام حادة. وليد نظر إلى الرجل ثم إلى زملائه كأنّه يبحث عن تفسير منطقي.

من بين الأشجار خرج أربعة رجال آخرين. جميعهم يرتدون الثياب نفسها: عمائم، قفاطين طويلة، أحذية جلدية، وسيوف معقوفة. وجوههم منهكة، لكن عيونهم كانت ثابتة وواثقة. واحد منهم كان يحمل راية خضراء صغيرة مطوية تحت ذراعه.

قلاوون أشار إليهم:

«هؤلاء ما تبقى من الفرقة. الباقون ماتوا على يد هذه الوحوش أو من الجوع والمرض. نحن نحتمي في قرية صغيرة خلف التل. تعالوا... ستجدون فيها الأمان والطعام».

عادل نظر إلى سهام. هي كانت تحدق في ملابس الرجال وتفاصيل سيوفهم.

«السنة التي ذكرها»، همست له بالعربية الفصحى الهادئة حتى لا يفهم الآخرون، «هي ١٢٦٠ ميلادية. موقعة عين جالوت حقيقية... لكن ما يقوله عن الاختطاف مستحيل».

قلاوون ابتسم ابتسامة واسعة، كأنّه سمع الشك في صوتها.

«أنتم من زمن بعيد عنا، هذا واضح من ثيابكم وآلاتكم العجيبة. لكن الدم واحد، والعدو واحد. الوحوش هنا لا ترحم. تعالوا إلى القرية قبل أن يحل الظلام تمامًا».

وليد تقدم خطوة بحماس.

«كابتن... هؤلاء بشر مثلنا. ربما نحصل على معلومات مهمة».

عادل لم يجب فورًا. نظر إلى جثة الوحش الهائل الذي كان لا يزال ينزف على التراب، ثم إلى الرجال الخمسة الذين يقفون أمامه بثقة غريبة. شيء في عيون قلاوون لم يكن يناسب رجلًا نجا للتو من الموت. كانت العينان هادئتين أكثر من اللازم، وعميقتين أكثر من اللازم.

أخيرًا قال:

«سنذهب. لكن أسلحتنا تبقى معنا، ولا أحد يقترب من المكوك».

قلاوون ضحك ضحكة قصيرة خشنة.

«بالطبع يا قائد الجنود. نحن لسنا أعداء. نحن إخوة في الغربة».

ساروا خلف الرجال عبر الغابة. الأشجار كانت تبدو الآن أقرب إلى بعضها، والظلال أطول. سهام سارت بجانب عادل وهمست مرة أخرى:

«لاحظ ملابسهم... نظيفة أكثر مما ينبغي لقوم يعيشون مطاردين منذ قرون. وسيوفهم... لا صدأ عليها».

عادل أومأ برأسه دون أن يتكلم.

خلفهم، على مسافة بعيدة، كانت جثة الوحش تبدأ في التحلل بسرعة غير طبيعية، وكأنّها لم تكن حقيقية تمامًا منذ البداية.

وأمامهم، كانت أنوار خافتة تظهر بين الأشجار... أنوار قرية تبدو كأنها خرجت لتوها من كتاب تاريخ قديم.

الفصل الخامس

قرية الأولياء

القرية ظهرت فجأة كأن الغابة انفرجت عنها عمدًا.

بيوت منخفضة من طوب أحمر وطين، أسقفها من الخشب والقش، ونوافذها الصغيرة تضيء بمصابيح زيتية صفراء. في الوسط ساحة ترابية واسعة، وفي طرفها مسجد صغير ذو قبة منخفضة ومئذنة قصيرة. رائحة الخبز الطازج وخشب الاحتراق كانت تملأ الهواء، مختلطة برائحة بهارات لم يعرفها عادل من قبل.

سكان القرية خرجوا لاستقبالهم في صمت. رجال بلحى وعمائم، نساء بملابس فضفاضة وأغطية رأس ملونة، وأطفال يقفون خلف أمهاتهم بعيون واسعة. لا صراخ، لا فوضى، فقط نظرات طويلة ممزوجة بالدهشة والامتنان.

قلاوون رفع صوته:

«هؤلاء إخوتنا الذين أنقذوني من الوحش. أكرموهم كما تكرمون ضيوف السلطان».

أُدخل الطاقم إلى أكبر البيوت. الفرش مبسوطة على الأرض، والوسائد مكدسة، وصواني النحاس مليئة بالطعام: لحم مطبوخ مع الأرز، خبز ساخن، وتمر، وإبريق شاي بالنعناع. كل شيء يبدو طازجًا ومرتبًا أكثر مما ينبغي لقوم يدعون أنهم يعيشون في خوف دائم من الوحوش.

وليد جلس فورًا وبدأ يأكل بشراهة.

«هذا ألذ طعام ذقته منذ أشهر»، قال وفمه ممتلئ.

عادل بقي واقفًا قرب الباب. سهام جلست ببطء، لكنها لم تلمس الطعام. كانت عيناها تتحركان بين الوجوه والتفاصيل: نقش على سجادة، شكل المصباح، طريقة ربط العمامة، ولون الحبر على ورقة قديمة معلقة على الجدار.

بعد قليل اقتربت عجوز من سهام وقدمت لها كوبًا من الشاي. قالت بصوت رخيم:

«اشربى يا ابنتي. الطريق كان طويلًا».

سهام أخذت الكوب لكنها لم تشرب. سألت بهدوء:

«منذ متى وأنتم هنا؟»

العجوز ابتسمت ابتسامة هادئة:

«منذ أن جاء أجدادنا بعد عين جالوت. الله أعلم بالعدد... عشرات السنين أو مئات. الزمن هنا مختلف».

قلاوون الذي كان يجلس في صدر المجلس التقط الحديث:

«نحن نسمي هذه القرية "قرية الأولياء". لأن من وصل إليها حيًّا يُعتبر محميًا بعناية الله. الوحوش نادرًا ما تقترب، والزرع ينمو بلا جهد كبير، والماء عذب دائمًا».

سهام نظرت إليه مباشرة:

«قلتَ إنكم جئتم بعد موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هجرية... أي ١٢٦٠ ميلادية. كيف تفسر أن سيوفكم لا تزال لامعة بلا صدأ، وملابسهم تبدو جديدة، وأنكم تتحدثون لغة يفهمها أهل القرن الحادي والعشرين بسهولة؟»

صمت قصير. بعض الرجال تبادلوا النظرات. قلاوون ضحك ضحكة خفيفة كأنها تغطي شيئًا آخر.

«الله يلهمنا ما نحتاج إليه يا أختي. وربما أنتم من زمن قريب منا أكثر مما تظنون. الزمن في هذا العالم لا يسير كما يسير عندكم».

عادل كان يراقب الحوار بصمت. لاحظ أن أحد الأطفال كان يحدق في جهاز الاتصال على معصم وليد بفضول شديد... ثم أدار وجهه بسرعة عندما شعر بنظرته.

خارج البيت، بدأ الأذان يرفع من المئذنة الصغيرة. صوت المؤذن كان جميلًا وعميقًا، لكنه بدا لعادل كأنه صادر من تسجيل قديم أكثر من كونه صوت إنسان حي.

سهام اقتربت منه وهمست بينما كان الجميع ينشغلون بالصلاة:

«هناك أخطاء صغيرة. السجاد يحمل نقوشًا لم تكن معروفة في ذلك العصر. والتمر الذي يأكلونه... نوعه لم يُزرع في مصر والشام إلا بعد قرون. شيء ما هنا غير متماسك».

عادل أجاب بصوت لا يكاد يُسمع:

«أعلم. لا تظهري ذلك. راقبي فقط».

في الخارج، كانت القبة الصغيرة للمسجد تلمع تحت ضوء القمر الصناعي للكوكب. وداخل البيوت، كانت العيون تتابع الضيوف الثلاثة... بهدوء، وبصبر، وكأنها تنتظر اللحظة التي يبدأ فيها الوهم في أداء دوره الحقيقي.

الفصل السادس

العنبر

في الليلة الثانية داخل القرية، سمع وليد الصوت.

كان الجميع نائمين على الفرش داخل البيت الكبير، إلا هو. خرج ليتنفس الهواء البارد، فوصله من بعيد همسٌ منتظم، كهدير محركات مكتومة، قادمًا من الجهة الغربية خلف التل الصغير.

عاد مسرعًا وأيقظ عادل وسهام.

«هناك شيء يُصدر صوت آلات... خلف التل. ليس صوت طاحونة ولا منسج. هذا صوت مختلف».

عادل لم يتردد. ارتدى حذاءه، وتأكد من مسدس الليزر، وأشار إليهما أن يتبعاه بهدوء. تسلل الثلاثة بين البيوت المظلمة، متجنبين ضوء المصابيح الزيتية القليلة التي لا تزال مشتعلة. الكلب الوحيد في القرية رفع رأسه ثم عاد للنوم كأنه لم يرَهم.

بعد ربع ساعة من التسلق الخفيف، وصلوا إلى قمة التل. تحتهم مباشرة كان هناك مبنى طويل مستطيل، مبني من معدن داكن لا يشبه أي شيء في القرية. لا نوافذ، وباب واحد ضخم نصف مفتوح، ومن داخله يتسرب ضوء أزرق باهت وصوت الهدير المنتظم.

«هذا ليس من عصر المماليك»، همست سهام.

دخلوا.

العنبر كان أوسع مما بدا من الخارج. صفوف من الأجهزة الغريبة مصطفة على الجانبين: أعمدة معدنية دوّارة، أقراص شفافة تدور ببطء، وأنابيب رفيعة تنبض بضوء متقطع. الهواء داخل المكان كان أثقل، محمّلًا برائحة الأوزون والمعدن الساخن. على الجدران شاشات سوداء لا تعرض شيئًا، لكنها تبدو حية.

وليد صفّر بصوت خافت:

«هذا... تقنية متقدمة جدًا. ربما أقدم منّا بمئات السنين أو أحدث».

فجأة جاء صوت من الخلف.

«أيها الفضوليون».

التفتوا بسرعة. قلاوون كان يقف عند الباب، وخلفه اثنان من رجاله. لم يكن يحمل سلاحًا ظاهرًا، لكن ابتسامته كانت أوسع من المعتاد، وأعمق.

عادل رفع مسدسه نصف رفعة.

«ما هذا المكان؟»

قلاوون دخل بخطوات بطيئة، يداه مفتوحتان كمن يُظهر حسن النية.

«أجهزة... قديمة. وجدناها هنا عندما وصل أجدادنا. نحن لا نفهمها تمامًا، لكننا نعلم أنها تحمينا. تحافظ على القرية، وتبعد الوحوش، وتجعل الأرض خصبة».

سهام تقدمت خطوة، عيناها لا تفارقان الأعمدة الدوّارة.

«هذه ليست أجهزة حماية عادية. هذه أنظمة معقدة... تبدو كأنها تتفاعل مع الموجات الدماغية».

قلاوون نظر إليها نظرة طويلة، ثم ابتسم ابتسامة جديدة، أبرد قليلًا.

«أنتِ ذكية يا امرأة. نعم... هي تؤثر على العقول. تجعلنا نرى ما نحتاج أن نراه، ونتذكر ما يجب أن نتذكره. بدونها... كنا ضعنا منذ زمن بعيد في هذا العالم القاسي».

صمت ثقيل.

عادل شعر ببرودة تسري في عموده الفقري. الأجهزة كانت تدور أسرع قليلًا الآن، والضوء الأزرق صار أقوى، وكأنّها استيقظت بوجودهم.

قلاوون أضاف بصوت هادئ يكاد يكون ودودًا:

«لا تخافوا. أنتم ضيوفنا. والأجهزة... لن تؤذي إلا من يحاول إيقافها».

في تلك اللحظة، سمع عادل داخل رأسه همسة خفيفة جدًا، كصوت بعيد يأتي من تحت الماء:

ابقَ... هنا جميل...

أزاح الهمسة بقوة إرادته، وأمسك مسدسه بقوة أكبر.

خارج العنبر، كانت قرية الأولياء تبدو هادئة ومضيئة تحت ضوء القمر.

لكن عادل أدرك الآن أن الهدوء كله... كان جزءًا من الآلة.

الفصل السابع

أجهزة الذاكرة

قلاوون لم يطلب منهم أن يخفضوا أسلحتهم.

سار بين الأجهزة الدوّارة كمن يسير في بستانه الخاص، يلامس الأعمدة المعدنية بأطراف أصابعه. الضوء الأزرق انعكس على وجهه فجعله يبدو أكبر سنًا وأعمق عينين.

«أنتم تسألون عن طبيعتها»، قال بصوت هادئ يشبه صوت معلم يشرح درسًا قديمًا. «هي ليست مجرد آلات حماية. هي... حافظة للذاكرة».

سهام كانت لا تزال تحدق في الأنابيب النابضة.

«ماذا تقصد؟»

قلاوون توقف أمام شاشة سوداء كبيرة، ووضع كفه عليها. الشاشة لم تُضئ، لكن صوت الهدير انخفض قليلًا كأنّه يستمع.

«عندما وصل أجدادنا إلى هذا العالم، كانوا محطمين. فقدوا كل شيء: الوطن، السلطان، المعركة، حتى أسماء بعضهم. هذه الأجهزة وجدناها تعمل. دخلنا في نطاقها... فعدنا نتذكر. تذكرنا من نحن، ولماذا نحن هنا، وما الذي يجب أن نحميه».

وليد كان يقف قرب العمود الأقرب. شعر فجأة بدوار خفيف، فوضع يده على الجدار.

«تقصد أنها... تعيد الذكريات؟»

قلاوون ابتسم.

«أكثر من ذلك. هي تختار الذكريات التي تستحق البقاء، وتمحو ما يؤلم أو يُضعف. تزرع صورًا جديدة إذا لزم الأمر. تجعل العالم... متماسكًا».

عادل شعر بالهمسة مرة أخرى داخل رأسه، أوضح هذه المرة:

لماذا تقاوم؟ هنا لا يوجد ألم...

أزاحها بعنف، وقال بصوت حاد:

«أنت تتحدث عن تنويم جماعي. عن إعادة برمجة للعقل».

قلاوون نظر إليه نظرة طويلة، فيها شيء يشبه الشفقة.

«سمِّها ما شئت يا قائد الجنود. بدونها كنا قد قتل بعضنا بعضًا من اليأس، أو نسينا وجوه أولادنا. هي تمنحنا قصة... والقصة تبقينا أحياء».

سهام تقدمت نحو أحد الأقراص الدوّارة، وأخرجت جهازها الصغير لتحليله.

«هذه الموجات... تؤثر مباشرة على النشاط الكهربائي للدماغ. خاصة على منطقة الذاكرة طويلة الأمد وال Centra المرتبطة بالتعرف على الوجوه والأماكن».

وليد تراجع خطوة. وجهه كان شاحبًا.

«أنا... أتذكر شيئًا. غرفة في بيتنا القديم في القاهرة. أمي تجلس على الكرسي الخشبي... لكن أمي ماتت وأنا صغير، ولم يكن لدينا كرسي خشبي».

صوته ارتجف في الجملة الأخيرة.

قلاوون أومأ برأسه كمن يسمع شيئًا متوقعًا.

«بدأ الأمر معك أيها الشاب. لا تقاوم. المقاومة تؤلم فقط».

عادل أمسك ذراع وليد بقوة وسحبه بعيدًا عن العمود.

«لا تقترب من الأجهزة. لا تنظر إليها طويلًا».

ثم التفت إلى قلاوون، وعيناه باردتان:

«أنت لست مملوكيًا. ولا هؤلاء الرجال. هذه القرية كلها... عرض».

قلاوون لم ينكر. ابتسم فقط، وابتسامته هذه المرة لم تصل إلى عينيه.

«العرض يستمر ما دامت الأجهزة تعمل. وأنتم الآن داخل النطاق. كلما بقيتم أطول... صارت القصة أجمل، وصار الماضي الذي تعرفونه أبعد».

في تلك اللحظة شعر عادل بثقل خفيف خلف عينيه، كأنها رغبة في أن يجلس ويريح رأسه. صورة عابرة مرت في ذهنه: نفسه يرتدي قفطانًا أخضر، وسيفًا معقوفًا في حزامه، وقلاوون يقف إلى جانبه كأخ قديم.

هزّ رأسه بعنف حتى اختفت الصورة.

سهام كانت تراقبه. فهمت ما حدث من نظرة عينيه.

«علينا أن نخرج من هنا فورًا»، قالت بصوت منخفض حاسم.

قلاوون فتح ذراعيه على اتساعه، مشيرًا إلى الأجهزة كلها.

«اخرجوا إن استطعتم. لكن الأبواب مفتوحة... والعقول ليست كذلك دائمًا».

الضوء الأزرق صار أقوى قليلاً.

وصوت الهدير صار أشبه بقلب كبير ينبض تحت الأرض.

الفصل الثامن

الشقوق في الوهم

لم يخرجوا من العنبر فورًا.

كان الخروج يعني عبور المسافة مرة أخرى تحت أعين القرويين، والعودة إلى البيت الذي صار يبدو الآن كجزء من الفخ. فبقوا داخل الضوء الأزرق، والأجهزة تدور حولهم كشهود صامتين.

سهام كانت أول من كسر الصمت. رفعت جهازها الصغير الذي كان لا يزال يعرض قراءات الموجات، ونظرت إلى قلاوون مباشرة.

«هناك أخطاء كثيرة في روايتكم»، قالت بصوت واضح لا ارتجاف فيه. «موقعة عين جالوت حدثت سنة ٦٥٨ هجرية، هذا صحيح. لكن السلطان قطز لم يكن يستخدم لقب "المظفر" بهذه الطريقة في الخطابات الرسمية. والسيوف التي تحملونها... تصميمها أقرب إلى القرن الخامس عشر من القرن الثالث عشر. والتمر الذي قدمتموه لنا أمس من نوع لا يُزرع في الشام ومصر إلا بعد اكتشافات زراعية متأخرة بقرون».

قلاوون استمع دون أن يقاطع. كان يبتسم تلك الابتسامة الهادئة التي صارت تثير الغثيان في حلق عادل.

«التفاصيل تتغير مع الزمن يا امرأة. الذاكرة الجماعية ليست كتابًا مطبوعًا».

«لا»، ردت سهام. «الذاكرة الجماعية تخطئ في التواريخ الكبيرة أحيانًا، لكنها لا تخترع أنواع تمور لم تكن موجودة. أنتم لم تعيشوا ذلك العصر. أنتم... تمثلونه».

وليد كان جالسًا على الأرض، ظهره إلى أحد الأعمدة. كان يمسك رأسه بكلتا يديه، وعيناه مغمضتين بشدة.

« suffices... أرى أشياء»، تمتم. «أبي يجلس معي على سطح البيت... لكن أبي مات في حادث قبل أن أتعلم المشي. لماذا أراه بوضوح هكذا؟ ولماذا أشعر أنني أعرفه منذ سنين؟»

صوته انكسر في النهاية. سهام أرادت أن تذهب إليه، لكن عادل أمسك ذراعها وأشار إليها أن تبقى في مكانها.

قلاوون اقترب من وليد بخطوات بطيئة.

«الفقير يرى ما يعوضه عن نقصه. الأجهزة رحيمة أكثر من الواقع».

عادل تقدم ووقف بينه وبين الشاب.

«ابتعد عنه».

نظراتهما تلاقَت. للمرة الأولى بدا شيء حقيقي في عيني قلاوون... ليس غضبًا، بل فضول بارد، كمن يفحص أداة جديدة.

«أنت تقاوم أكثر من الآخرين»، قال. «لماذا؟ معظم البشر يستسلمون خلال ساعة. أنت... لك جدار داخلي».

عادل لم يجب فورًا. خلف عينيه كانت تمر صور قديمة أبعدها منذ سنوات: غرفة بيضاء، أجهزة طبية، أصوات أطباء يقولون إن الذاكرة قد لا تعود كاملة بعد الحادث. ذلك الانفجار في المحطة الفضائية القديمة، والنار، والأيام التي قضاها لا يعرف اسمه. التدريب الذهني الذي جاء بعد ذلك لم يكن للتميز... بل للبقاء.

«لأنني أعرف طعم الذاكرة المكسورة»، قال أخيرًا بصوت منخفض. «وأعرف أن ما يُزرع بالقوة... ليس ملكًا لصاحب الرأس».

قلاوون مال برأسه قليلًا كمن يسمع معلومة مفيدة.

«إذن أنت خطر».

في تلك اللحظة أطلق وليد صرخة قصيرة. فتح عينيه وكانتا حمراوين من الضغط. نظر إلى عادل كأنه يراه للمرة الأولى.

«كابتن... أنا أتذكر الآن. أنت كنت معنا في عين جالوت. كنت تحمل الراية. لماذا نسيت؟»

سهام وضعت يدها على فمها. عادل شعر بالهمسات تتكاثر داخل رأسه هذه المرة، أصواتًا متعددة تقول الشيء نفسه بطرق مختلفة:

ابقَ معنا... أنت واحد منا... الراية تنتظرك...

أغلق عينيه ثانية، واستدعى الألم القديم عمدًا. الألم كان حقيقيًا. الألم كان له. استخدمه كمرساة.

عندما فتح عينيه مجددًا، كان النظر ثابتًا.

«سهام»، قال بهدوء، «هل يمكنك تعطيل هذه الأجهزة مؤقتًا؟»

هي نظرت إلى القراءات على جهازها، ثم إلى الأعمدة الدوّارة، وأجابت بصوت جاف:

«ليس مؤقتًا... إما أن تُدمَّر، أو تبقى تعمل. لا يوجد حل وسط».

قلاوون ضحك ضحكة خفيفة هذه المرة.

«إذن اختاروا. إما قصة جميلة تدفئكم... أو حقيقة باردة تقتلكم من الداخل قبل أن تقتلكم الوحوش».

خارج العنبر، كان أذان الفجر يرفع من المئذنة الصغيرة.

لكن الصوت هذه المرة وصل مشوهًا... كأنه يأتي من تحت الماء.

الفصل التاسع

الوجه الحقيقي

الضوء الأزرق تغيّر فجأة.

صار أنصع، وأحدّ، وكأن الأجهزة كلها قررت أن تكشف ما كانت تخفيه. قلاوون كان لا يزال يبتسم، لكن ملامح وجهه بدأت... تتحرك. الجلد على جبهته امتد إلى الأعلى، والأنف تطاول قليلاً، والعينان اتسعتا وصار لونهما أعمق من أي عين بشرية.

سهام تراجعت خطوة.

«عادل...»

قبل أن تكمل، انهار الشكل البشري تمامًا.

قلاوون لم يعد قلاوون. الجسد تحت القفطان تمدد وضاق في أماكن خاطئة، والرأس صار متطاولاً كجمجمة حشرة عملاقة، والأنف تحول إلى عضو متوهج ينبض بضوء باهت. من حوله بدأ الآخرون يتحولون أيضًا: الرجال الذين كانوا يقفون عند الباب، والعجوز التي قدمت الشاي بالأمس، وحتى الطفل الذي كان يحدق في جهاز وليد... كلهم انحلّت أجسادهم البشرية مثل ملابس مبللة، وظهرت تحتها مخلوقات شبه طفيلية لامعة، ذات أطراف رفيعة وعيون سوداء كبيرة بلا جفون.

وليد أطلق صرخة حقيقية هذه المرة، وحاول الزحف بعيدًا لكنه اصطدم بعمود دوار.

صوت جماعي سكب داخل رؤوسهم الثلاثة في اللحظة نفسها، ليس عبر الآذان بل مباشرة في الدماغ:

ألقوا أسلحتكم.

المقاومة بلا معنى.

القصة أجمل من الحقيقة.

عادل شعر كأن يدًا باردة تمسك بمركز ذاكرته وتحاول أن تعيد ترتيبه. صور تدفقت عليه: نفسه في زي مملوكي، الراية الخضراء في يده، قلاوون يربت على كتفه كأخ. خلف هذه الصور كان الألم القديم يصرخ محاولاً البقاء.

سهام سقطت على ركبتيها، جهازها سقط من يدها وتحطم. كانت تمسك رأسها وتهمس:

«لا... هذه ليست ذكرياتي...»

أحد المخلوقات اقترب منها بسرعة حشرة، وأطرافها الرفيعة امتدت نحو وجهها. عادل رفع المسدس وأطلق. الشعاع الليزري قطع الطرف فسقط على الأرض يتشنج. المخلوق زعق بصوت عالي التردد جعل الأذن الداخلية تؤلم.

المعركة انفجرت داخل العنبر.

المخلوقات كانت سريعة، تتحرك بقفزات قصيرة غير منتظمة، وتحاول الاقتراب بما يكفي لتفرض السيطرة الذهنية الكاملة. عادل أطلق النار بدقة متدرّبة، كل شعاع يصيب هدفًا، لكن العدد كان أكبر. سهام التقطت مسدس وليد الذي سقط منه، وبدأت تطلق هي الأخرى رغم ارتعاش يديها.

وليد كان الأسوأ حالاً. كان جالسًا على الأرض، عيناه مفتوحتان لكنهما لا تريان العنبر. كان يبتسم ابتسامة فارغة ويهمس:

«الراية... أنا أحمل الراية...»

مخلوق كبير قفز نحو عادل من الجانب الأعمى. شعر به في اللحظة الأخيرة، وانحنى. الطرف الحاد مرّ فوق رأسه وضرب العمود المعدني فأحدث شرارة طويلة. عادل صوّب من وضعية منخفضة وأطلق شعاعًا مباشرة في العضو المتوهج الذي كان أنفًا. المخلوق ارتجف بعنف ثم انهار مبتلاً بسائل شفاف كريه الرائحة.

الصوت الجماعي داخل الرؤوس صار أعلى:

أنتم واحد منا.

الذاكرة الجديدة تنتظر.

ألقوا السلاح.

عادل تذكر الغرفة البيضاء، والنار، والأشهر التي قضاها يتعلم كيف يبني جدارًا داخل رأسه من الألم الحقيقي. استخدم ذلك الجدار الآن بكل قوته. دفع الهمسات إلى الخلف، خطوة خطوة، حتى صار يستطيع أن يتنفس مجددًا.

نظر إلى سهام. هي كانت لا تزال تقاوم، لكنها تضعف. نظر إلى وليد الذي كان يبتعد عنهم زحفًا نحو مجموعة المخلوقات كمن يذهب إلى أهله.

ثم نظر إلى الأجهزة الدوّارة التي كانت مصدر كل هذا.

رفع مسدسه نحو أقرب عمود رئيسي، وصاح لسهام:

«الغرض ليس قتلهم... عطّلي المصدر!»

وهي فهمت. صوّبت مسدسها نحو مجموعة الأنابيب النابضة في وسط العنبر، وأطلقت مع عادل في اللحظة نفسها.

الضوء الأزرق ارتعش.

والصوت داخل الرؤوس صار للمرة الأولى... متألمًا.

الفصل العاشر

النار والرماد

الشعاعان أصابا الأنابيب النابضة في الوقت نفسه.

حدث صمت قصير جدًا، كأن العالم كله حبس أنفاسه. ثم انفجر الضوء الأزرق إلى الأبيض، وصار الهدير صراخًا معدنيًا حادًا. أحد الأعمدة الدوّارة توقف فجأة، ثم انفجر من داخله شرارات بيضاء ساخنة. الأنابيب تشققت، والسائل الشفاف الذي كان يجري داخلها تناثر على الأرض مشتعلًا بلهب أزرق مخضر.

المخلوقات زعقت كلّها دفعة واحدة.

الصوت لم يعد داخل الرؤوس فقط، بل صار مسموعًا في الهواء: صرخات عالية التردد تمزق الأذن. بعضها حاول أن يقفز نحو الأجهزة لإصلاح ما تضرر، فاستقبلته

شعاعات عادل وسهام. السائل الشفاف الذي ينزف منها كان يشتعل بمجرد ملامسته للهب، فتحولت أجسادها إلى مشاعل حية تتصارع وتتهاوى.

وليد كان لا يزال على الأرض، لكنه بدأ يصرخ هو أيضًا... صرخة بشرية هذه المرة. رفع يديه إلى عينيه كمن يستيقظ من حلم طويل مزعج.

«ما هذا؟ ما الذي...؟»

عادل لم يجب. كان يتحرك بين الأعمدة، يطلق النار على كل جهاز لا يزال يدور. سهام غطت ظهره، تطلق بإيقاع منتظم كلما اقترب مخلوق. النار كانت تنتشر بسرعة غير طبيعية، كأن العنبر كله مبني من مادة تنتظر الشرارة منذ زمن.

سقف المبنى بدأ ينهار من الحر. قطع معدنية ساقطة اشتعلت هي الأخرى. الدخان الأسود ملأ المكان، مختلطًا برائحة اللحم المحروق الغريب والبلاستيك الذائب.

«إلى الخارج!» صاح عادل.

سحب وليد من طوق بدلته، ودفعه نحو الباب الواسع الذي كان لا يزال مفتوحًا. سهام لحقت بهما وهي تطلق الشعاع الأخير خلفها. انفجر العمود المركزي في تلك اللحظة انفجارًا كبيرًا رفعهم عن الأرض قليلاً وألقاهم خارج العنبر على التراب.

التفوا ينظرون.

القرية... لم تعد موجودة.

البيوت الطينية، والمسجد ذو القبة، والمئذنة، والمصابيح الزيتية، والرجال ذوو العمائم، والنساء، والأطفال... كل شيء اختفى في طرفة عين. كأن ستارة ضخمة سُحبت دفعة واحدة.

أمامهم امتدت أرض قاحلة بنية مائلة إلى الحمرة، مليئة بالحجارة الحادة والشقوق العميقة. لا أشجار، لا أنهار، لا ظل. فقط سهل واسع موحش تحت سماء رمادية كثيفة، ونباتات برية قليلة متفرقة ذات لون أرجواني وأزرق غريب، تبدو كأنها تنتمي إلى كوكب آخر تمامًا.

خلفهم كان العنبر يشتعل كشعلة عملاقة في وسط العدم. أجساد المخلوقات التي لم تحترق داخل المبنى كانت تتصارع على الأرض المتفحمة، ثم تتوقف واحدة بعد أخرى.

وليد جثا على ركبتيه وبدأ يتقيأ. سهام وقفت صامتة، وجهها مغطى بالسواد من الدخان، وعيناها تمسحان الأفق الفارغ كأنها لا تصدق أن كل ذلك الجمال قد تبخر.

عادل بقي واقفًا. نظر إلى يديه اللتين كانتا لا تزالان تمسكان بالمسدس، ثم إلى السهل الميت الذي يمتد حتى الأفق.

الهمسات داخل رأسه كانت قد صمتت أخيرًا.

لكن الصمت نفسه كان مرعبًا أكثر من أي صوت.

في البعيد، فوق التلال الصخرية، لمعت أضواء ضعيفة... أضواء سفينة «حطين» التي وصلت أخيرًا إلى المدار، وبدأت تمسح السطح بحثًا عن الناجين.

أما كوكب الرعب، فقد كشف وجهه الحقيقي أخيرًا... وكان قبيحًا، وفارغًا، وصادقًا.

الفصل الحادي عشر

اللحظات الأخيرة

الصمت كان أثقل من الحبال.

تامر رشدي بقي ممددًا على الصخرة الداكنة، مقيدًا كقربان قديم، ينظر إلى السماء البرتقالية الباهتة فوقه. ظل التمثال يغطي نصف جسده، والخط الانسيابي للرقم سبعة يمتد كذراع طويلة تحاول أن تظلل عليه حتى في النهاية. الهواء ثقيل، ورائحة المتفجرات الطازجة تختلط برائحة الكبريت والغبار المعدني. بعيدًا قليلًا كان رضوان والثلاثة الباقون يتحركون بهدوء محاسبي، يفحصون الأسلاك والصمامات للمرة الأخيرة.

لا أحد يتكلم الآن.

انتهى وقت الخطاب والتكفير والاحتقار. بقي التنفيذ فقط.

تامر أغلق عينيه لحظة. مرت أمامه صور السنوات الخمس: الليالي التي قضاها يراجع بيانات الاهتزازات، الصباحات التي كان يقف فيها أمام التمثال يتحدث إليه كأنه يسمع، الوجوه التي رحلت في القباب المحترقة... فوزي وماجدة وكريم والآخرون. ثم مرت صورة أقدم: القاعة الكبيرة في مجلس علماء المجرة، والصوت الذي رفعه يومها قائلًا إن بعض الأشياء يجب أن تبقى لأنها تذكّرنا بأننا أكثر من كائنات جشعة.

ابتسم ابتسامة شاحبة بلا فرح.

كان يعرف أنه سيخسر. منذ اللحظة التي سمع فيها صوت الانفجار الأول عرف. ومع ذلك لم يندم. التمثال لم يكن حجرًا فقط. كان دليلًا على أن الجمال يمكن أن يصمد عشرة آلاف سنة في وجه الزمن والجشع والخطابات التي ترى في كل شيء إما رزقًا يُنتزع أو وثنًا يُسحق. حتى لو سُحق اليوم، فقد صمد طويلًا... وهذا بحد ذاته انتصار.

فتح عينيه. رضوان كان يقف على مسافة عشرة أمتار، يراجع جهاز التفجير عن بعد. أحد الرجال يربط السلك الأخير عند القاعدة، والاثنان الآخران يتراجعان إلى الخلف حاملين الأدوات. كل شيء جاهز. الحفرة التي ستُفتح بعد لحظات صُممت لتبدو نيزكية تمامًا: عميقة، عشوائية، ولا تترك أثرًا بشريًا يمكن تتبعه.

رضوان التفت إليه للمرة الأخيرة. صوته وصل عبر جهاز الاتصال هادئًا وبلا انفعال:

«انتهينا. بعد دقيقة واحدة. لن تشعر بشيء طويلًا. اعتبرها نهاية سريعة لقصة انتهت منذ أن قررت الدفاع عن حجر».

تامر لم يرد. لم يعد هناك ما يُقال. نظر إلى الأعلى نحو القمة البعيدة للتمثال. الخطوط التي طالما درسها تبدو الآن أقرب، كأن الصخرة نفسها تتنهد. النبضة الخفيفة التي كان يسجلها منذ أسابيع عادت تحت ظهره مباشرة... أعمق هذه المرة، وأوضح. كأنها جواب متأخر.

همس تامر بصوت لا يكاد يسمعه أحد:

«إذا كنت تستيقظ... فليكن الآن».

رضوان رفع يده لرجاله إشارة بالابتعاد النهائي. الثلاثة تراجعوا بسرعة محسوبة حتى صاروا على مسافة آمنة. رضوان نفسه أخذ خطوات إلى الوراء، جهاز التفجير في راحة يده، إصبعه فوق الزر.

نظر إلى تامر نظرة أخيرة وقال:

«وداعًا... يا حارس الوثن».

ثم ضغط.

في اللحظة المحددة تمامًا اهتز التمثال.

اهتزازة خفيفة أولًا، كأنها تنهيدة. ثم شيء أعمق انبعث من القاعدة نفسها، من الأعماق التي كان المعدن ينام فيها، ومن الصخرة التي ظن الجميع أنها ميتة منذ عشرة آلاف سنة. الأرض تحت جسد تامر ارتجت، والغبار ارتفع في موجة صغيرة، وظل الرقم سبعة العملاق تحرك على السهل كأنه كائن يفيق من نوم طويل.

رضوان تجمد في مكانه. الرجال الثلاثة توقفوا. الوجه خلف الخوذة الشفافة امتقع فجأة.

تامر، المقيد على الصخرة، شعر بالابتسامة الشاحبة تتسع على وجهه رغم الألم.

اللحظات الأخيرة لم تكن نهايته فقط.

كانت بداية شيء أقدم بكثير.

الفصل الثاني عشر

النجاة

سفينة «حطين» هبطت بصوت هدير عميق اهتزت له الأرض القاحلة تحت أقدامهم.

كانت أكبر من مكوك «أحمس» بكثير، سوداء اللون، ومسلحة بمدافع ليزر ثقيلة تبرز من جوانبها كقبضة مغلقة. بمجرد أن استقرت على سطح الكوكب، فتحت بواباتها الجانبية وخرجت منها فرق مسلحة ببدلات قتالية كاملة، تتحرك بسرعة وانضباط كأنهم يعرفون مسبقًا أن هذا المكان لا يرحب بالضيوف.

القائد الذي نزل أولًا كان رجلًا في الخمسين، قصير القامة، حاد النظرة. نظر إلى الثلاثة المتسخين المنهكين، ثم إلى هيكل العنبر المحترق، وأومأ برأسه مرة واحدة.

«الكابتن عادل شاكر؟ أنا العقيد يوسف من أسطول الفضاء. أنتم تحت الحماية الآن. صعدوا فورًا».

بينما كان الطبيبان يفحصان وليد وسهام بسرعة، اقترب عادل من العقيد وقال بصوت منخفض:

«لا تزال هناك بقايا. أجهزة تحت الرماد، وربما بيض أو وحدات كامنة. لا تتركوا شيئًا».

العقيد نظر إليه نظرة طويلة، ثم رفع جهاز الاتصال على معصمه.

«إلى غرفة القيادة... ابدأوا القصف المنهجي. القطاع الجنوبي كله. لا تبقوا على هيكل واحد قائم».

بعد دقائق صعدت السماء بأعمدة من نار بيضاء.

مدافع «حطين» فتحت نارها بدقة باردة. كل شعاع كان يضرب موقعًا محددًا: بقايا العنبر، الهياكل الصدئة للسفن القديمة، الشقوق التي كان قد يخرج منها شيء. الأرض كانت ترتجف، والحجارة تتناثر، والرماد يطير في الهواء كعاصفة سوداء. ما تبقى من المخلوقات التي كانت لا تزال تتشبث بالحياة تحت الركام احترق هذه المرة حتى العظام الشفافة.

وليد كان يقف عند نافذة الممر داخل السفينة، يده على الزجاج، يراقب الدمار بصمت. سهام جلست على مقعد معدني، رأسها إلى الخلف، عيناها مغمضتان لكنها لا تنام. عادل بقي واقفًا خلف العقيد في غرفة القيادة الأمامية، يشاهد الشاشات التي تعرض السطح وهو يتحول إلى جحيم منظم.

«هل هذا كل شيء؟» سأل العقيد وهو ينظر إلى القراءات.

«لا نعرف»، أجاب عادل. «هذه المخلوقات لا تموت بسهولة. وقد تكون لها وحدات في أماكن أخرى من الكوكب».

العقيد صمت قليلاً ثم قال:

«سنمسح نصف هذا القطاع قبل أن نغادر. والباقي... ستقرره القيادة العليا».

بعد ساعة كانت العملية قد انتهت. السطح الذي كان يحمل العنبر والقرية الوهمية صار مجرد حفرة واسعة محروقة، تنبعث منها أبخرة خضراء باهتة. لا شيء يتحرك.

الإشارة صدرت بالصعود النهائي.

قبل أن تُغلق البوابة خلفه، التفت عادل للمرة الأخيرة. السهل البني المائل للحمرة كان يمتد حتى الأفق تحت السماء الرمادية، قبيحًا وصادقًا وصامتًا. لا غابات، لا قباب، لا أذان، لا رجال بعمائم. فقط كوكب كشف وجهه، ودفع ثمن الخداع نارًا ورمادًا.

همس لنفسه، بصوت لا يسمعه أحد:

«وداعًا... يا كوكب الرعب».

ثم دخل، وأُغلقت البوابة خلفه بصفير محكم.

السفينة ارتفعت ببطء في البداية، ثم انطلقت نحو الفضاء تاركة خلفها عالمًا محروقًا لا يزال يخبئ تحت ترابه أسئلة أخطر من كل الوحوش التي ظهرت على سطحه.

وفي غرفة صغيرة داخل «حطين»، كان وليد يجلس وحده، يحدق في جدار فارغ، ويبتسم أحيانًا ابتسامة خفيفة... كمن يسمع صوت أذان بعيد لا يسمعه غيره.

الفصل الثالث عشر

التقرير

قاعدة أسطول الفضاء الرئيسية كانت تبدو أكبر وأبرد مما تذكرها عادل.

الممرات المعدنية اللامعة، الأضواء البيضاء القاسية، والروائح المعقمة... كل شيء يصرخ بالنظام والانضباط بعد الأيام التي قضوها على الكوكب القاحل. أُدخل الثلاثة فور وصولهم إلى جناح طبي معزول، وخضعوا لفحوصات طويلة: دم، مسح دماغي، اختبارات ذاكرة، وتحليل لكل شيء قد يكون عالقًا بهم من ذلك المكان.

وليد كان الأسوأ. كان يستيقظ في الليل وهو يهمس بكلمات قديمة، وأحيانًا يطلب راية خضراء لا وجود لها. سهام رفضت المهدئات، وجلست ساعات طويلة تكتب ملاحظات على جهازها الخاص قبل أن يُصادر منها. أما عادل فقد أجاب على كل الأسئلة الطبية بصوت مسطح، وعيناه تتابعان الأطباء كأنّه يحاسبهم مسبقًا على ما سيأتي.

بعد ثلاثة أيام نُقلوا إلى غرفة تحقيق رسمية.

كان هناك ضابطان من المخابرات العسكرية، وعالمة نفسية، وممثل عن المجلس العلمي للمجرة. على الطاولة شاشة كبيرة تعرض صورًا ملتقطة من مدار «حطين»: العنبر قبل الاحتراق وبعده، بقايا السفن القديمة، والسهل المحروق.

العقيد الذي استجوبهم أولًا فتح ملفًا رقميًا وقال:

«نحتاج تقريرًا كاملًا. كل تفصيلة. من لحظة اكتشاف الفيروس حتى لحظة الصعود إلى حطين. لا تختصروا».

عادل تكلم أولًا. روى الأحداث بصوت هادئ ومنضبط: الفيروس، الهبوط، الوحش، قلاوون، القرية، الأجهزة، التحول، الدمار. سهام أضافت التفاصيل العلمية: طبيعة الموجات، تأثيرها على الذاكرة طويلة الأمد، والأخطاء التاريخية التي كشفت الوهم. وليد حاول أن يتكلم لكنه توقف مرات عدة، وعيناه تملآن بالدموع أو بالفراغ.

عندما انتهى الكلام، صمت الجميع لحظة.

ثم قالت العالمة النفسية:

«هل تعتقدون أن تأثير الأجهزة قد يكون لا يزال قائمًا داخل أدمغتكم؟»

سهام أجابت قبل أن يتكلم أحد:

«لا نعرف. لكنني أوصي بمراقبة طويلة الأمد... خاصة لوليد».

أحد ضابطي المخابرات مال إلى الأمام.

«هناك أجزاء في روايتكم... حساسة. الحديث عن إعادة برمجة الذاكرة الجماعية، وعن إمكانية استخدام هذه التقنية. هذه أمور لا يجب أن تخرج إلى الرأي العام الآن».

عادل رفع عينيه ونظر إليه مباشرة.

«هل تقصدون أنكم ستطمسون جزءًا من التقرير؟»

الضابط لم يُنكر.

«سنعيد صياغة بعض الفقرات. الأمن أولًا. لا نريد أن تنتشر حالة ذعر، ولا أن تصل أفكار... معينة إلى جهات قد تسيء استخدامها».

سهام ضحكت ضحكة قصيرة جافة.

«جهات مثل من؟ أم مثلكم؟»

الصمت هذه المرة كان أثقل.

بعد ساعات خرجوا من غرفة التحقيق وهم يحملون نسخًا أولية من التقرير... نسخًا ناقصة. فقرات كاملة عن طبيعة الأجهزة وقدرتها على مسح الذاكرة وزرع ذكريات بديلة كانت قد حُذفت أو لُطّفت بعبارات عامة مثل «تأثيرات عصبية غير معروفة».

في الممر الطويل، أمسك عادل ذراع سهام وأوقفها.

«هم لا يريدون الحقيقة كاملة»، قال بصوت منخفض. «يريدون نسخة يمكنهم السيطرة عليها».

هي نظرت إلى الباب المغلق خلفهم، ثم قالت:

«إذن علينا أن نحتفظ بالنسخة الحقيقية... في مكان لا يصلون إليه».

وليد الذي كان يمشي خلفهما رفع رأسه فجأة وابتسم ابتسامة خفيفة غريبة.

«القصة الجميلة أفضل»، همس. «ألم يقولوا ذلك؟»

عادل وسهام تبادلا نظرة طويلة.

في مكان ما داخل القاعدة، كانت نسخ التقرير تُنسخ وتُوزّع وتُعدَّل.

وفي مكان أبعد، على كواكب أخرى وفي غرف مغلقة، كانت أخبار «كوكب الرعب» و«أجهزة الذاكرة» تبدأ في التسرب إلى آذان من ينتظرون سلاحًا جديدًا... لا يقتل الجسد، بل يعيد كتابة الروح.

الفصل الرابع عشر

الانقسام

لم يستغرق الأمر أكثر من أسبوع حتى انقسمت الغرف المغلقة.

التقرير الرسمي، حتى بنسخته المعدّلة، كان كافيًا ليشعل ما كان كامناً. في قاعدة الأسطول، وفي المقرات البعيدة على الأرض، وفي المحطات المدارية الخاصة، بدأت الاجتماعات السرية تُعقد واحدًا بعد آخر. عادل وسهام لم يُدعيا إلى معظمها، لكن الأخبار كانت تصل إليهما عبر نظرات، ورسائل مشفرة قصيرة، ووليد الذي صار يسمع همسات في الممرات أكثر مما ينبغي.

الفريق الأول كان واضحًا ومباشرًا: **الدمار الكامل**.

جنرالات كبار وقفوا أمام خرائط الكوكب وقالوا بلا مواربة:

«هذا المكان خطر وجودي. التقنية التي وُجدت هناك لا يجب أن تبقى. نمسح الكوكب من المدار إن لزم الأمر. لا دراسات، لا عينات، لا شيء».

الفريق الثاني كان أكثر هدوءًا... وأكثر خطورة.

علماء ومسؤولون من قسم البحوث المتقدمة قالوا:

«نحن أمام أعظم اكتشاف في علم الأعصاب منذ قرون. القدرة على مسح ذاكرة وزرع أخرى... هذا يمكن أن يعالج الصدمات النفسية، يمحو ذكريات الحروب، يعيد تأهيل المجرمين. نحتاج إلى دراسة، لا إلى تدمير».

أما الفريق الثالث فلم يكن يتحدث في الاجتماعات الرسمية كثيرًا. كان يتحدث في غرف أضيق، خلف أبواب أسمك.

هناك، كانت الأصوات مختلفة:

«تخيلوا لو استطعنا إعادة كتابة ذاكرة شعب كامل. نجعلهم ينسون هزائم معينة، أو يتذكرون انتصارات لم تحدث. نجعل الخصوم السياسيين يرون تاريخًا مختلفًا... فيتغير سلوكهم من تلقاء أنفسهم».

بعضهم جاء من تيارات دينية متشددة رأت في التقنية أداة «تطهير» للذاكرة من الأفكار المنحرفة.

بعضهم جاء من شبكات نفوذ رأت فيها سلاحًا ناعمًا أخطر من أي أسطول.

وبعضهم جاء من أجهزة مخابرات ببساطة أرادت أن تمتلك الوسيلة قبل أن يمتلكها الآخرون.

عادل جلس في إحدى الجلسات النادرة التي دُعي إليها، واستمع إلى كل هذا بصمت. عندما جاء دوره في الكلام، قال جملة واحدة فقط:

«أنتم تتصارعون على سلاح يحول البشر إلى قصص تُكتب من الخارج. من يمتلك القلم... يمتلك الإنسان».

أحد المسؤولين من الفريق الثالث ابتسم ابتسامة رفيعة.

«أو يحرره من قصص مؤلمة يا كابتن. الأمر يعتمد على من يمسك القلم».

سهام التي كانت تجلس إلى جانبه لم تعد قادرة على الصمت.

«رأينا ماذا يفعل هذا القلم. رأينا رجالًا يتحولون إلى مماليك، وأطفالًا يبتسمون وهم غير موجودين. رأينا زميلنا يكاد يفقد نفسه. أنتم لا تتحدثون عن علاج... أنتم تتحدثون عن استعمار للعقل».

الجلسة انفضّت بعدها بقليل. لكن الانقسام كان قد تكرس.

في تلك الليلة، تلقى عادل رسالة مشفرة قصيرة على جهازه الخاص. لم يكن يعرف المرسل، لكن اللغة كانت واضحة:

«النسخة الكاملة من تقريرك مطلوبة. هناك من يدفع ثمنًا باهظًا لامتلاك التفاصيل التي حُذفت. إذا لم تسلمها... فقد يُسلّمها غيرك».

قرأ الرسالة مرتين، ثم محاها.

في الغرفة المجاورة، كان وليد جالسًا على سريره، يحدق في الحائط، ويهمس بين الحين والآخر بجملة واحدة متكررة:

«القصة الجميلة... أفضل».

وعادل أدرك أن المعركة الحقيقية لم تعد على سطح كوكب بعيد.

المعركة صارت هنا... داخل القاعدة، وداخل العقول، وداخل من لا يزالون يعتقدون أنهم يستطيعون السيطرة على الذاكرة دون أن تسيطر هي عليهم.

الفصل الخامس عشر

ظلال الوهم

الليل في القاعدة كان اصطناعيًا، لكن الكوابيس كانت حقيقية.

عادل استيقظ للمرة الرابعة في أسبوع واحد وهو يمد يده إلى جانب السرير كأنه يبحث عن سيف معقوف. الغرفة معدنية باردة، والضوء الأحمر الخافت لطوارئ الليل يرسم خطوطًا على الجدار، لكن للحظة قصيرة جدًا رأى القبة الصغيرة للمسجد، وشمّ رائحة الخبز الطازج والنعناع. ثم اختفى كل شيء، وبقي فقط طعم معدني في فمه.

نهض وغسل وجهه بالماء البارد مرتين. في المرآة بدا الرجل الذي ينظر إليه أكبر سنًا مما يجب، وعيناه تحملان ظلًا لم يكن هناك قبل الرحلة.

في الصباح التالي وجد سهام في غرفة الملاحظات الطبية، تحدق في شاشة تعرض مسحًا لدماغها.

«الأمر يتكرر معي أيضًا»، قالت دون أن تلتفت إليه. «وممضات. ليست ذكريات كاملة... مجرد أجزاء. صوت أذان، طعم تمر، شعور بأنني أعرف أسماء أطفال لم ألتقِ بهم أبدًا. المسح يظهر نشاطًا غير طبيعي في منطقة الذاكرة العرضية. شيء ما لا يزال... عالقًا».

عادل جلس إلى جانبها.

«وليد؟»

هي أغلقت الشاشة بوجه متجهم.

«أسوأ. الأطباء يقولون إنه "يتكيف". أنا أقول إنه يستسلم تدريجيًا. بالأمس ناداني باسم لم أسمعه من قبل... اسم امرأة من القرية الوهمية. عندما صححته نظر إليّ كأنه لا يفهم لماذا أصحح شيئًا واضحًا».

الصمت جلس بينهما ثقيلاً.

بعد ساعات ذهبا معًا لزيارة وليد في جناح المراقبة النفسية. كان جالسًا على سريره، يرتدي لباسًا رماديًا بسيطًا، ويرسم على ورقة خطوطًا تشبه قبابًا ومآذن. عندما رآهما ابتسم ابتسامة صافية كابتسامة طفل.

«جئتما أخيرًا. القلاوون يسأل عنكما. يقول إن الراية تحتاج إلى حاملين جديدين».

سهام شعرت بقشعريرة. عادل اقترب ببطء.

«وليد... نحن في القاعدة. الكوكب خلفنا. الأجهزة دُمرت».

وليد نظر إليه بشفقة خفيفة.

«لماذا تصرّان على القصة المؤلمة؟ القصة الأخرى أجمل. فيها معنى... وفيها مكان لنا».

خرج عادل من الغرفة قبل أن يقول شيئًا يندم عليه. في الممر أوقفته سهام وأمسكت ذراعه.

«هل فكرت أن ما نراه الآن... القاعدة، التقرير، الانقسام... قد يكون هو أيضًا طبقة أخرى من الوهم؟ وأننا لم نخرج أصلًا؟»

نظر إليها طويلًا. السؤال كان قد طرق بابه الداخلي أكثر من مرة في الليالي السابقة.

«فكرت»، اعترف. «لكن الألم هنا مختلف. في الوهم كان الألم يُمسح أو يُجمّل. هنا يبقى. الجوع إلى الحقيقة يبقى. هذا هو الفرق الوحيد الذي أثق به حتى الآن».

في تلك الليلة عاد عادل إلى غرفته فوجد رسالة جديدة على جهازه الخاص. هذه المرة لم تكن طلبًا لشراء التقرير.

كانت جملة واحدة فقط، مكتوبة بلغة تشبه لغته هو:

«بعض البذور لا تحتاج إلى أجهزة لتعيش. هي تنتظر فقط أن يتعب صاحب الرأس من المقاومة».

محا الرسالة، لكنه ظل يسمع في خلفية صمته صوت أذان بعيد... لا يعرف إن كان تذكرًا، أم بذرة، أم بداية انكسار آخر في الجدار الذي بناه حول ذاكرته منذ سنوات طويلة.

وخارج النافذة المعدنية، كان الفضاء أسود وفارغًا... ولا يحمل أي إجابة.

الفصل السادس عشر

القرار

القرار صدر في جلسة مغلقة استمرت أقل من ساعة.

لم يُدعَ عادل ولا سهام إليها. عرفا النتيجة من بيان رسمي قصير ظهر على الشاشات الداخلية للقاعدة في اليوم التالي:

«نظرًا للخطر الوجودي الذي يمثله كوكب الرعب وما عُثر عليه على سطحه، تقرر تدمير جميع البقايا المعروفة للمنشآت غير البشرية، وفرض حظر كامل على الاقتراب من مداره لمدة خمسين عامًا. أي أبحاث متعلقة بالتقنية المكتشفة تُعتبر محظورة وتخضع للمساءلة العسكرية».

البيان كان نظيفًا، حاسمًا، ومريحًا للرأي العام داخل الأسطول.

لكن عادل قرأ ما بين السطور فورًا.

في المساء جاءه الزائر الذي كان يتوقعه.

رجل متوسط العمر، يرتدي زيًا مدنيًا أنيقًا، بلا رتبة ظاهرة، وبابتسامة دبلوماسية لا تصل إلى العينين. جلس دون أن يُدعى، ووضع على الطاولة جهازًا صغيرًا يشوش أي أجهزة تسجيل.

«البيان للعلنيين يا كابتن»، قال بهدوء. «أما الحقيقة... فهناك نسخة أخرى».

عادل لم يجلس.

«تقول».

«الكوكب سيُحظر رسميًا. لكن فريقاً خاصاً سيهبط مرة أخرى خلال أشهر. بهدوء. لجمع ما يمكن جمعه من بقايا الأجهزة قبل أن تُدمَّر بالكامل. التقنية أهم من أن تُترك للرماد... أو للعدو».

سهام التي كانت واقفة عند النافذة التفتت ببطء.

«ومن هو العدو في هذه الجملة؟ نحن أم هم؟»

الرجل تجاهلها ونظر إلى عادل فقط.

«أنت الوحيد الذي قاوم التأثير لفترة طويلة. نحتاج خبرتك. نحتاج النسخة الكاملة من تقريرك... تلك التي لم تُسلَّم. في المقابل، نضمن لوليد علاجًا حقيقيًا في منشأة خاصة، ونضمن لكما تجاهلاً رسميًا لأي "تجاوزات" حدثت في الرواية».

عادل ضحك ضحكة قصيرة خالية من أي مرح.

«تعرضون علينا صفقة لبيع ما تبقى من ذاكرتنا... كي تساعدكم على سرقة ذاكرة الآخرين».

الرجل رفع كتفيه قليلاً.

«الذاكرة سلاح يا كابتن. والسلاح الذي لا نمتلكه... سيمتلكه غيرنا. بعض الأطراف على الأرض بدأت تتحرك بالفعل. إذا لم نأخذ التقنية، أخذوها هم. وأنت تعرف من أعني».

الصمت امتد.

ثم قال عادل بصوت منخفض وواضح:

«أخرج».

الرجل وقف، وأعاد الجهاز التشويشي إلى جيبه.

«أمامك أربعة أيام. بعد ذلك تُسحب الحماية الطبية عن وليد، وتُفتح ملفات قديمة عن "عدم استقرار نفسي" لك وللدكتورة سهام. القرار بيدكما».

خرج وأغلق الباب بهدوء مهذب.

سهام اقتربت من عادل. وجهها كان شاحبًا لكن عينيها تشتعلان.

«هم لم يدمروا شيئًا. هم فقط يشترون الوقت... ويشترونا».

عادل سار نحو النافذة ونظر إلى الفضاء الأسود.

«إذن لم يعد أمامنا سوى خيارين: إما أن نسلمهم النسخة الكاملة ونصبح جزءًا من الآلة الجديدة... أو نحرقها قبل أن تصل إلى أي يد».

في الغرفة المجاورة، كان وليد يرسم على الجدار بقلم مهرب قبة صغيرة ومئذنة، ويهمس لنفسه:

«الراية لا تزال تنتظر...»

وعادل أدرك أن القرار الحقيقي ليس في البيان الرسمي، ولا في الصفقة المعروضة.

القرار كان في ما سيختارون أن يتذكروه... وما سيختارون أن يمحوه بأيديهم هذه المرة.